استهلال

انتهيت من العمل علىٰ النسخة الأولية من هذا الكتاب في ذروة سَكْرة النصر في الحادي عشر من شهر فبراير ٢٠١١م، بعد أن عمت مظاهرات المصريين الهائلة الصبورة الحازمة الدءوبة أصقاع البلاد كافة، حين أُجبِرَ حسني مُبارك علىٰ إنهاء فترة حكمه التي امتدت لثلاثة عقود، وخرج الشعب المصري بأطيافه كافة في احتفالات ضخمة، وقد مَسّت بهجتهم قلوب كل المتابعين من أرجاء العالم كافة، حتىٰ إنني سمعت قصة عن أحد المصريين، كان يمر عبر الجمارك الأمريكية، فلما علم ضابط الجمرك بأنه مصري؛ أشار بذلك إلىٰ حشد المنتظرين بالصف من خلفه فانفجروا جميعًا مصفقين.

لقد كان أملي الخالص؛ بمجرد إتمام هذا الكتاب الذي يدور حول العلمانية والدين في مصر، أن يكون عملًا أنثربولوجيًا تاريخيًا عن حقبة بائدة، أتىٰ عليها عصر جديد يحمل إمكانات واحتمالات غير معروفة وتجاوزها، تفتتح هذا العصر تلك اللحظة غير المسبوقة في التاريخ المصري. ولكن، وهنا بالتحديد، بدأت مشاعري الاحتفالية في الخفوت؛ لأنني كنت أتناول إحدىٰ أطول إشكاليات مصر أمدًا: وهي ما إذا كانت مصر وهل لها أن تكون؛ دولة علمانية أم دولة دينية. وكنت أكتب عن إحدىٰ أقدم وأعرق مؤسساتها: نظامها القضائي. وكنت مهتمًا أيضًا بنموذج/ بارادايم، لا يتعلق بمصر وحدها، بل شارف أن يبلغ موضع هيمنة عالمية، وهو نموذج الأمن القومي، الذي أدىٰ إلىٰ إلفٍ ونزوع متصاعدين لحالات الطوارئ. في ظل إشكالية مُعلنة طويلة الأمد، ومؤسسة عريقة راسخة الجذور، وبارادايم عالمي مهيمن، هل يمكن للكتاب أن يتحدث عن وقت ما قبل الانتفاضة المصرية وما بعدها علىٰ أنهما مرحلتان منفصلتان؟! وإن لم يتمكن من ذلك، فليكن إذن وثيقة تاريخية واحدة متماسكة عن العِقد المنصرم الذي قاد إلىٰ تلك الأحداث.

إحدىٰ أهم مناطق الجدل المركزية التي يقدمها هذا الكتاب هي أن مصر ليست عالقة بماضيها، وهي لا ترجو المستقبل الذي حققته الدول الديمقراطية بالفعل، بل علىٰ العكس، إن مصر بتطبيعها وترسيخها لحالات الطوارئ وحربها علىٰ الإرهاب؛ التي امتدت لعقد من الزمان، أصبحت تمثل ما يبدو أنه المستقبل العلماني الوحيد المحتمل الذي تنحدر نحوه الدول الديمقراطية الغربية. سواء أكان هذا الكتاب يتحدث عن حاضر مصر أم عن مستقبلها، فإنني أزعم أنه يتحدث عن حاضر الدول الديمقراطية العلمانية الغربية وغدها.

أرىٰ أن الانتفاضة المصرية -بعيدًا عن تنحّي مبارك- مُشكَّلة من عدّة مبادئ أساسية متواشجة وتعبر عنها، أحد هذه المبادئ: أن السلطة يجبُ ألا تكون حكرًا علىٰ شخص؛ مسلمًا كان أو مسيحيًا، أو حكرا علىٰ جماعة علمانية كانت أو دينية. لم يكن هناك قائد أو زعيم خلال التظاهرات، لا شخص ولا جماعة ولا ميل أيديولوجي، كل الجهود كانت مُتّحدة متآزرة. وثمة مبدأ آخر: وهو أن بارادايم الأمن القومي يجب أن يتم تفكيكه كليًّا، هذا الذي اجتاح مصر لفترات متطاولة وبإحكام صارم؛ بذريعة الحرب علىٰ الإرهاب الديني. إننا يجب أن نضع في الحسبان أن جام غضب المتظاهرين كان منصبًا علىٰ وزارة الداخلية، التي أدارت جهاز أمن الدولة الضخم، الذي أصبح مسؤولا عن تعريف ماهية الدولة. ولكي نُجمل ما فصلناه آنفًا بعبارة أخرىٰ، يمكننا أن نقول إن المتظاهرين قد فَصَلوا سؤال الدين والعلمانية عن سؤال الأمن، وقد شكّلوا بفصلهم هذين الموضوعين كلًا عن الآخر مساحة خالية من المطالبة بكليهما، وسأتناول هذا الموضوع في الخاتمة بمزيد من التفصيل.

سألني أناس كُثر في أثناء الاحتجاجات عما أعتقد أنه يمكن أن يكون النتيجة المرجوّة المثلىٰ لما يحدث في مصر بالنسبة إلىٰ الولايات المتحدة؟ أعترف أن هذا السؤال قد أصابني بالحيرة وقتها؛ لأنه بدا لي أنه علىٰ المرء أن يتساءل عن أفضل نتيجة مرجوّة بالنسبة إلىٰ المصريين. لكن بالتفكير في المبادئ الثانوية التي شكّلت أُطُر التظاهرات أظن أنني الآن أملك ردًا علىٰ هذا السؤال. وهو أن أفضل نتيجة مرجوّة للأمريكيين يمكن أن تتحقق فقط إذا ما تعلَّموا من المثال الذي صنعه المصريون. فقد استُغرِقَت الولايات المتحدة، كما هو الشأن في مصر، لفترات طويلة في بارادايم الأمن

القومي. وتضخّمت أجهزتها الأمنية بكل قوة ممكنة عبر «الحرب علىٰ الإرهاب» التي تؤدي إلىٰ آثار مُدمّرة علىٰ الصعيدين الداخلي والعالمي، وتؤدي كذلك إلىٰ تركّز السلطة السياسية في أيدي قلة قليلة. ربما قد حان الوقت في الولايات المتحدة أيضا أن تفصل سؤال الدين/العلماني عن السؤال الآخر المتعلق بالأمن، وتنهي احتكار السلطة السياسية الذي يوهن من ممكنات مُثُلها الديمقراطية. وربما للأحداث الجارية في مصر أن ترشدنا إلىٰ احتمالات تلك المحاولة ومزالقها. فبالرغم من انقلاب مسار الأمور، فإن المصريين قد تعلموا درسًا مهمًا بسيطًا، أظن أنه يجابهنا أينما حللنا، وهو أن قادتنا لا يملكون لنا نجاة مما نخشاه من المستقبل، وأنه وأيًا كان قَدْرُ الأمل المتبقي، فهو كليًا في أيدينا نحن.

الشكر الذي أدين به للذين ساعدوني في إتمام هذا العمل ربما يملأ كتابًا مستقلًا. والشكر والتقدير الذي سأكتبه هنا، والذي كان من الضروري أن يكون موجزًا، لا يمكن أن يُعبر عن الامتنان الذي أحمله لهذا الدعم الهائل الذي تلقيته طوال مدة العمل علىٰ هذا المشروع. ومع ذلك عليّ أن أتمهل هنا قليلًا لأعرب عن عميق شكري لطلال أسد، الذي لولا دعمه الفكري والنقدي لم يكن لهذا المشروع أن يرىٰ النور. دائمًا ما أعْجَب من حسن الطالع الذي قادني للدراسة تحت إشرافه، ليس هذا لاتساع معارفه ودقتها، ونفاذ بصيرته وحصافة بلاغته فحسب، ولكن أيضا لجسارته الفكرية، التي تمثل أنموذجًا علميًا أستمر في محاكاته ويدأب في إلهامي. إن تأثيره يغمر صفحات هذا الكتاب، الذي لا أعده إلا محاولة للاشتغال بفكره.

لقد كان طلال في غاية الصبر في متابعته للتطور البطيء لأفكاري، عندما كان هذا المشروع في أولىٰ خطواته في جامعة جون هوبيكنز بالتيمور. أما تانيا بيكار فقد اتخذت أسلوبًا مختلفا. فعندما كان يستولي عليّ التردد في شرح أفكاري التي كانت في طور التكوين لطلال أسد، كانت تستمع هي إليّ بصبر وانتباه ويقظة فكر ثم ترد قائلة: «حسنًا، ولم تنته إلىٰ الآن؟» أبقاني هذا السؤال المتكرر يقظًا، ثم نفدت أعذاري في النهاية؛ لذا علىٰ أن أتوجه لها بالشكر أيضًا. وأشكر كل أولئك الذين كانوا معي في جامعه جونز هوبكنز علي تعليقاتهم ومشاركتهم وخاصة عندما كنت أتعثر أو أتردد في أمر من الأمور.

وشكري وتقديري موصول لرفقة جامعة جون هوبكينز لمناقشاتهم وتعليقاتهم خلال أشد مراحل هذا المشروع حسمًا، وأخص منهم سارة بيرري، وبيل كونوللي، ودونالد كارتار، وفيينا داس، وسيبا جروفوجي، ونيلوفر حائري، وجيان باندي، وديبي بوول، وسونيا ريانج، وديفيد سكوت.

وأنا مدين بشكر خاص لشخصين هما تشارلز هيركند وصبا محمود اللذيْن قرآ النسخة الأولية من هذا العمل كاملة في عدة مراحل، وقد قادت تعليقاتهم أفكاري إلىٰ عمق أبعد غورا وإلىٰ نتائج لم أكن أتوقعها. وأمد نقاشي معهما المشروع بطاقات جديدة، وبخاصة في الأوقات التي بدت أنها علىٰ وشك النفاد.

إنني ممتن أيضا لكل زملائي في جامعة شيكاغو وخصوصا جين وجون كوامروف وليزا ويديين لدعمهم وتشجيعهم المتواصلين لي لإتمام هذا العمل، وبخاصة تساؤلات ليزا ويديين الثاقبة التي حسّنت رؤاي كثيرًا وصقلتها.

وأشكر زملائي بقسم الأنثروبولوجيا، لما حظيت به من مناقشات معهم في طريقي من الحرم الجامعي وإليه، وفي الردهات وعلىٰ سلالم قاعة هاسكل. وفي أثناء تناول الفطور والعشاء في أيام الاثنين، مع كل من جيسيكا كاتيلينو، جولي شو، شانون داودي، جودي فاركوهار، كيشا فيكيس، راي فوجلسون، سوزان جال، جون كيللي، جو ماسكو، ويليام مازاريللا، ستيفان بالمي، فرانسوا ريتشارد، دانيلين روزيرفورد، مايكل سيلفيرستين.

وبالرغم من أن كل هذه المناقشات كانت تحدث صدفة في الغالب، فإنها، وبطرق عدّة، قد تركت بصمة في هذا الكتاب. ولقد كنت محظوظًا بكوني جزءًا من مجموعة «كتابة» التي قدمت لي دعمًا مبهرًا وهي تتمتع بفطنة فكرية عالية، والشكر والامتنان موصولان لأعضائها: أمل بشارة وساميرسون كير وروبين شوبس.

وأتقدم بجزيل الشكر لجون ويسلون علىٰ دعوته لي لحضور سلسلة من ورش العمل في كينجز كوليج بعنوان «التقليد في العالم المعاصر»، تلك التي أتاحت لي أن أفكر في الصلة بين التقليد والسلطة من جهة وبين الممارسة القانونية الدينية من جهة أخرىٰ، وقد استفدت كثيرًا من نقاشي معه. وأشكر وينيفريد فالليرز سوليفان وروبرت ييل علىٰ دعوتهما لي لحضور سلسلة من الندوات بعنوان «إعادة توصيف للمقدس والعلماني:

القصة القانونية»، التي أعطتني فرصة عظيمة لنقاش عابر للتخصصات، وأخص وينيفريد بالشكر علىٰ اشتباكه مع عناصر مشروعي البحثي.

كما أود أن أقر بفضل عدد من الأصدقاء والزملاء حيث أغدقوا علي من دعمهم وكرمهم الفكري عبر سنين إنجاز البحث، وهم: حسام بهجت، ريتشارد باكستروم، روجر بيجريتش، جيس بامب، أنيلا دولتزاي، سميرة إسمر، خالد فهمي، ميانثي فيرناندو، برينكلي ميزيك، أميرة ميترماير، تامر مصطفىٰ، سامينا مولا، نادين نابر، بيتينا ناغوينو، بوريس نيكولوف، سيلفيان بيرديجون، حنان سابيا، آدم صبرة، عاطف سعيد، دون سيلبي، ملكي الشرماني، طارق الشيمي، نوح سولومون، كريستيان ستيلت ومليكة الزغل.

وقدمت لي كل من هند فؤاد ونيرمين محمد مساعدات بحثية حيوية لا غنىٰ عنها، تمامًا ككرم بوديون دوبرت الفكري الذي ساعدني كثيرًا خلال مسيرة البحث، كما أفادتني جلساتنا المسائية الطويلة حول «الشيشة» في القاهرة حيث اجتمعنا لنقاش كل شيء تحت سماء مصر.

إلىٰ رغدة حافظ: لقد أبقتني ضحكتك صامدًا أمام كل هذا الأفق الرمادي الطويل، لقد غادرتنا، ويظل لغيابك أعمق التأثير. وإلىٰ ماريو بونيللا: لم تكن لك صلة بالحياة الأكاديمية، لكنك كنت أول من سيبادر إلىٰ مهاتفتي ليهنئني بصدور هذا الكتاب. إن طريقتك في عيش الحياة ومواجهة فنائها المُخيف قد علمتني درسًا سيلازمني لنهاية أيامي، لقد كنت خير معلم لي. آن لك الآن، أن تستريح، شيكو.

وشكري وامتناني المستمرين لسعاد يوسف وسمادار لافي اللذين أقنعاني بالعودة إلىٰ الجامعة بعد أن أقسمت ألا أعود أبدًا لمقاعد الدراسة.

وأود أيضًا أن أعبر عن امتناني لديفيد بيرنيت وبريا نيلسون من دار النشر التابعة لجامعة شيكاجو، اللذيْن يعود لهما الفضل في سلاسة عملية نشر هذا الكتاب حتىٰ فاقت توقعاتي، وقد استفدت أيضًا من داون هول وكنت محظوظًا بتحريره الدقيق لمخطوط الكتاب.

تم تمويل هذا البحث عبر مؤسسة وينير جرين للبحث الأنثروبولوجي، وبرنامج فولبرايت، ومعهد جون هوبكينز العالمي لأبحاث السلطة والثقافة والتاريخ. وأمكنت

منحة التفرغ للكتابة المقدمة من منح ليشتيستيرن بقسم الأنثروبولوجيا بجامعة شيكاجو والتمويل السخي من برنامج كارنيجي من إتمام العمل.

ولقد كانت مهمة إتمام هذا العمل ممكنة في ظل الصداقة المبهرة والكرم البالغ الذي رأيته من المصريين الذين قابلتهم في القاهرة، بالتوازي مع دعم عائلتي وأسرتي التي ساعدتني في كل منعطف مررت به خلال مسيرة بحثي. وأنا مدين علىٰ وجه الخصوص إلىٰ المحامين والقضاة وشيوخ الأزهر -الذين لن أستطيع أن أفصح عن أسمائهم هنا لدواعي السرية- الذين أرشدوني بصبر عبر عوالمهم المعقدة. وأنا شاكر لكل المصريين بوجه عام جهدهم المذهل خلال الثمانية عشر يوما من الثورة، ومحاولاتهم المستمرة لمد تلك المثُل الثورية إلىٰ المستقبل، وأخص بالذكر اثنين من المصريين وهما والديّ: علي عجرمة ونادية إلهامي، كل كلمة في هذا الكتاب مهداة لهما.

لقد كان حب ماريا إيوجينيا وبونيللا شاكين وصحبتهما ودعمها الدائم مرساة لحياتي جعلها تستحق أن تُعاش، ومن دونهما كنت سأضل الطريق.

مقدمة المترجم

لم يكن دافعي لترجمة هذا الكتاب هو ثراءه المعرفي حول موضوع الدين والعلمانية فقط، فبالرغم من الجديّة الشديدة وسعة الاطلاع والدقة التي يتميز بها المؤلف، وإشاراته بالغة الأهمية في هذا المضمار إلا أن أهم ما دفعني لترجمة هذا العمل -بالرغم من عدم اختصاصي في حقل الترجمة- هو ندرة الأعمال التي تتناول أنثروبولوجيا القانون في المكتبة العربية بشكل عام، سواء العربية أو المترجمة، وندرة الأعمال التي تتناول التجارب والممارسات القانونية العربية والإسلامية بشكل خاص بالدرس الأنثروبولوجي.

مؤلف الكتاب هو حسين علي عجرمة، يعمل كأستاذ مشارك بقسم الأنثروبولوجيا بجامعة شيكاغو، وصدر الكتاب في طبعته الإنجليزية الأولىٰ عن جامعة شيكاغو عام **٢٠١٢**. يحاول عجرمة في هذا الكتاب أن يسلط الضوء علىٰ مجموعة من الأبعاد والمفاهيم والحساسيات المُتعلقة بنشأة سؤال الحد الفاصل بين الدين والسياسة في العالم الحديث، من خلال التركيز علىٰ الحالة المصرية. ويتميز هذا الكتاب بأنه يقدم للقارئ صورة موسعة حول النقاش النظري حول موضوع العلمانية من الأنثروبولوجي البريطاني طلال أسد إلىٰ الفيلسوف الكندي تشارلز تايلور وغيرهما، إلا أن إحدىٰ أهم مميزات هذا الكتاب هي أنه يُنزّل نظريات التقليد العلمي الذي يقوده طلال أسد علىٰ الواقع المصري، ليخرج باستنتاجات تاريخية ونظرية ومفهومية جديرة بالتأمل، والتي أظن أنها أفضل المقاربات بين ما وقعت عليه من كتب حول مسألة الدين والعلمانية خاصة في السياق المصري.

ولا يتوقف تميز الكتاب عند ذلك الحد، بل أحسبه درسًا بالغ الأهمية في التفكير الأنثروبولوجي في القانون الحديث والدولة الحديثة ومسائل السيادة والسلطة التنظيمية التوسعية للدولة السيادية، وأيضًا علاقة الشريعة الإسلامية بالتقليد القانوني الغربي والتأثيرات التي تعرضت لها الشريعة الإسلامية في ظل حكم القانون الليبرالي.

ولا أود هنا أن أطيل الحديث في التمهيد لأفكار الكتاب، فالكاتب قد أجاد في شرح مُراده والتمهيد له وتلخيصه وتقريب أفكاره للقارئ غير المتخصص. أود هنا فقط أن أشير إلىٰ عدّة ملاحظات حول العمل علىٰ ترجمة هذا الكتاب إلىٰ العربية، خاصة أن جزءًا كبيرًا من محتوياته تُرجم إلىٰ الإنجليزية من العربية ثم إلىٰ العربية مرة أخرىٰ، فبذلت وُسعي في إعادة تلك المرادفات -خاصة الإسلامية والقانونية منها- إلىٰ بيئتها العربية. فأغلب اللغة القانونية المبثوثة في صفحات هذا الكتاب هي لغة قانونية أنجلوساكسونية أُريد لها أن تُعبر عن التقليد القانوني المصري المُستقىٰ من التقليد القانوني القارّي -والفرنسي بوجه خاص- فكلمة مثل National Courts علىٰ سبيل المثال التي تعني المحاكم الوطنية يُقصد بها في هذا الكتاب «المحاكم الأهلية» التي استبدلت بها المحاكم المختلطة في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وغالبًا ما يصف المؤلف ويُصنف القوانين المصرية حسب التصنيف الأمريكي فيشير إلىٰ قانون المرافعات المدنية والتجارية المصري باسم قانون الإجراءات. وهكذا.. ولم أُرد أن أرهق القارئ بكثير من الهوامش لأبرر اختياراتي اللغوية أو أقدم تفسيرًا لأسباب التقديم والتأخير، خاصة أنني قد نزعت إلىٰ استخدام «لغة عمومية» -بتعبير الفيلسوف الألماني يورجن هابرما- في نقل هذا العمل إلىٰ العربية، وتحريت بساطة العبارات قدر المُستطاع والبعد عن التعقيد اتباعًا لنهج المؤلف.

وعُدت في أغلب الأوقات إلىٰ الأصول العربية للاقتباسات التي قدمها المؤلف إلا إن تعذر الحصول علىٰ مصادره عينها، خاصة أحكام المحاكم المصرية التي يصعب أن أعود إلىٰ أصولها فقد ترجمتها عن الإنجليزية مع تحري دقة اللغة القانونية والعودة إلىٰ النصوص الأصلية للقوانين المصرية، وقد اجتهدت في بعض الأحيان في تقديم اقتراحات عربية جديدة لبعض المفاهيم -خاصة الأنثروبولوجية منها- وأود أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير للزملاء علاء عيسىٰ وعمار أبو الفتوح وكريم محمد وحبيب الحاج سالم والدكتور محمد متولي علىٰ كرمهم العلمي ومشورتهم المثمرة، كما أتقدم بجزيل الشكر لمركز نماء للدراسات والأبحاث وللأستاذ ياسر المطرفي والأستاذ أحمد سالم والأستاذ محمد توفيق علىٰ تعاونهم وصبرهم ومودتهم الدائمة ورغبتهم في إثراء المكتبة العربية بأبحاث جادة كهذا الكتاب. والحمد لله الموفق . . .